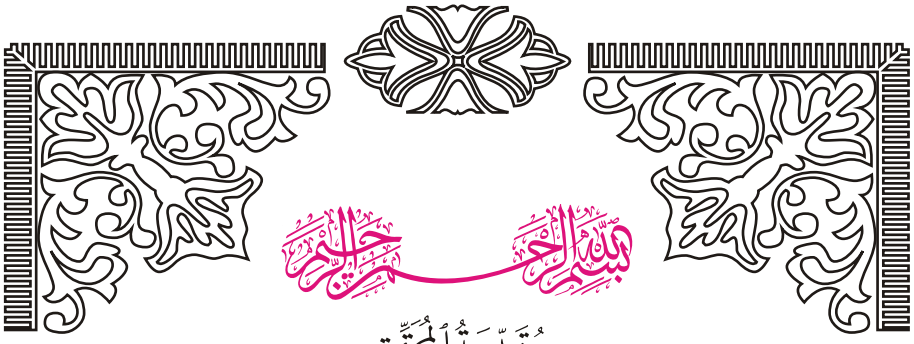

مُقَدِّمَةُ ٱلْمُحَقِّقِ

الحمد لله على تمام فضله وإكرامه، وعلى سابغ إحسانه وإنعامه، وهو الذي بنعمته تتم الصالحات، وببركة عونه تتكامل الأعمال والحسنات، وهو ذو الجلال والإكرام، وذو الطَّول والإنعام، فله الحمد واجباً، وله الدين واصباً.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله الكرام، وأصحابه الغر العظام، الذين آمنوا به واتبعوه، وأيدوه ونصروه، ونقلوا لنا رسالته، وبلغونا أمانته، وحملوا على عاتقهم نشر هذا الدين في جنبات الأرض، فبذلوا في سبيل ذلك المالَ والأرواح، وغادروا الأوطان، وفارقوا الوالد والولدان، فكانوا بحق ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

ثم حمل هذه الأمانة من بعدهم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، حفظ الله بهم الدين، وأنار بهم السبيل، ساروا في شرق الأرض وغربها يؤدون تلك الأمانة التي جعلها الله في أعناقهم، أمانة عرضَها الله على السموات والأرض، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، فحملها هؤلاء العمالقة من العلماء الأفذاذ.

إنهم رجال اختصهم الله واصطفاهم على بقية خلقه؛ ليحقق بهم قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩] رجال صدقوا الله فصدقهم، أشرقت عقولهم بنور معرفته، ونوَّر قلوبهم بتجليات أنسه، فكانت عقولاً وقلوباً بيضاء نقية، حفظت لهذه الأمة دينها وشريعتها وعقيدتها، منهجاً ودستوراً أبدياً.

اصطفاء يدوم فيه قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

اصطفاء يظهر فيه قول النبي ﷺ: «يحمل هذا العلمَ من كل خلف عدولُه، يَنفون عنه تحريفَ الغالِين، وانتحالَ المبطِلين، وتأويلَ الجاهلين»[1].

هؤلاء السادة العلماء استطاعوا أن يُخرجوا الإنسانية من الظلمات إلى النور، من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

أقاموا صرح الحضارات في ربوع البلاد وأطراف الأرض، أسسوا مدارس القرآن والسنة النبوية، تلك اللبنة الأولى التي كان لها الأثر الأكبر في تنوير الفكر وإثرائه بشتى أنواع العلوم.

ومنه توجهوا إلى التأليف، فوضعوا المؤلفات العظيمة في كل علم وفن، يحفظون بها تراث هذه الأمة وحضارتها.

وقد تنوعت المؤلفات بتنوع المدارس التي أسست؛ فمن مدرسة للقرآن، إلى مدرسة للحديث، والفقه، والعقيدة، والتصوف، وغير ذلك.

---

(١) انظر: حديث رقم: (١١٦٥) من هذا الكتاب.

ثم تأثرت تلك المؤلفات بمناهج الفكر المعتمدة في تلك المدارس.

ونحن أمام مدرسة نشأت في «ترمذ» من بلاد خراسان، إمامُ هذه المدرسة شخصية فذة، استطاع أن يثبت نفسه، ويؤسس وجوده أمام مدرستين عظيمتين: مدرسةِ الحديث، ومدرسةِ التصوف، فجمع شتات ما تفرق بينهما.

إنه الحكيم الترمذي رحمه الله صاحبُ العقل المشرق، والفكر المستنير، الذي أثرى مدرسته بمؤلفات عدة يؤسس فيها أركان مدرسته، ويؤصِّل فيها أصولها، ويبين ثقافته المتعددة الجوانب.

ومن أهم تلك المؤلفات: «نوادر الأصول»، فهو أنموذج رائع لتلك المدرسة، بل هو أساسها؛ لما يشتمل عليه من ثقافات متنوعة: حديثية، وفقهية، وأخلاقية، ونفسية، وغير ذلك.

ولو أردنا أن نستخلص ثقافة الحكيم من هذا الكتاب، ومنهجه فيه، لوجدناه على النحو التالي:

١ ـ الحكيم محدثاً: فهو يستخدم طريقة المحدثين في نقل الأحاديث؛ حيث يسوقها بأسانيدها، ولا يقف على درجتها من الصحة والضعف، أو درجة رجالها من الثقة والضبط إلا نادراً، بل يتجاوز ذلك ليهتم بالمعاني المستنبطة من تلك الأحاديث ظاهراً وباطناً.

ولو خضت عباب «النوادر»، لوقفت على آراء الحكيم الحديثية، وتبين لك اهتمامه بهذا الجانب، فتارة تراه يتكلم على رواية الحديث بالمعنى، فهو ـ وإن كان يجيزه ـ إلا أنه يأخذ على أيدي الرواة الذين يروون ما لا يفقهون،

ويحذرهم أن يكونوا مدخلاً لأهل الزندقة والانحلال؛ ليدسوا في الدين ما ليس منه، ثم يلوي إليهم أخرى، ويحذرهم من قلب المعاني اللغوية التي تؤدي إلى تغيير المعنى المراد.

وتارة أخرى يتكلم على التصحيح والتضعيف، إلا أنه أغرب في هذه المسألة؛ حيث ذهب إلى القول بأن التصحيح والتضعيف منوط بالحكماء، فهم الذين يفقهون المعاني، ويدركون المباني، يدفعون تحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

من هنا أُخذ الحكيم، وكثر الحديث الضعيف عنده، فمجردُ الاعتماد على المعاني دون الأسانيد لا يكفي عند أهل الحديث.

وتارة تجده يتكلم على ألفاظ التحديث: «أخبرني، وحدثني»، وعن المناولة والمكاتبة[1].

٢ـ الحكيم لغوياً: تجده في كثير من المواطن يتكلم في النواحي اللغوية والنحوية والصرفية، وله عناية بالوقوف على الأحرف ومعانيها، وأسرار بنائها واشتقاقها، وتقديمها وتأخيرها.

٣ـ الحكيم فقيهاً: يعرف الحكيم الفقه بقوله: الفقه: هو الفهم، وانكشاف الغطاء عن الأمور، فإذا عبدَ الله بما أمر ونهى، بعد أن فهمه وعقله، وانكشف له الغطاء عن تدبيره فيما أمر ونهى، فهي العبادة الخالصة المحضة[2].

---

(١) انظر: الأصل (٢٦٨).

(٢) انظر: الأصل (١٩).

هذا التعريف يبين لك المراد من الفقه في مدرسة الحكيم.

ومن ناحية أخرى تجده قد أفرد أصولاً يبحث فيها عن أمور فقهية فيها الحلال والحرام، يطرح فيها رأيه الفقهي مؤيداً له بشواهد قرآنية أو حديثية.

٤ـ **الحكيم صوفياً**: جمع الحكيم بين الحديث والتصوف؛ ليبين أن التصوف الحق ما أسس على القرآن والسنة، وأنه لا تعارض بينهما إلا في عقل من لم يؤت حظاً من الفهم والحكمة.

ومن جانب آخر بيَّن فيه لمدَّعي التصوف والزهد ما هم عليه من انحراف وباطـل، وأمرَهم بالرجـوع إلى منبعه الصحيح: الكتاب، والسنة، وفهم السلف الصالح.

٥ ـ **الحكيم مفسراً**: يتجلى ذلك في أصول أفردها لتفسير بعض السور أو الآيات، يغوص في غور المعاني، ويستخرج منها الدرر، ويطرحها بعبارات حلوة، وإشارات لطيفة[1].

إذاً نحن أمام روضة غناء، فيها من النفائس والدرر ما يغني القلب، ويثري العقل.

نحن أمام مدرسة منهاجها الحديثُ والتصوف، مبناها الفكرُ، إمامُها الحكيم، دستورُها «نوادر الأصول»، ولا بد من دراسة هذه النواحي كلٌّ على حدة.

وأخيراً: أسأل الله أن يتقبل مني هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به الإسلام والمسلمين، وأسأله أن يغفر لي، وللناشر الكريم،

---

(١) انظر: الأصل (٥٨)، (١٥٧)، (١٧٢).

ولمن أسهم معي في هذا العمل الجليل.

فإن تجاوزت قدري، فأسأل الله العفو، وإن حققت قصدي، فأسأل الله القبول، راجياً من عين أهل العلم إذا وقعت على زلل في ثنايا هذا الكتاب: أن تغفر وتتجاوز، وتراسلني لبيان ذلك وتصحيحه، وإن وقعت على صواب: أن تشكر الله على الموافقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

توفيق محمود تكله

بتاريخ ٩ رجب ١٤٣٠هـ

٢٠٠٩/٧/١

❐ ❐ ❐